٢

النُّكت فى إعجاز القرآن

لأبى الحسن على بن عيسى الرمّانى

(٢٩٦ هـ – ٣٨٦ هـ)

بسم الله الرحمن الرحيم [1]

صلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

قال الشيخ الإمام أبو الحسن على بن عيسى الرمانى سألت وفقك الله عن ذكر النكت فى إعجاز القرآن دون التطويل بالحجاج ، وأنا أجتهد فى بلوغ محبتك ، والله الموفق للصواب بمنه ورحمته ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه .

وجوه إعجاز القرآن تظهر من سبع جهات : ترك المعارضة مع توفر الدواعى وشدة الحاجة ؛ والتحدى للكافة ؛ والصَّرفة ، والبلاغة : والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة ؛ ونقض العادة ، وقياسه بكل معجزة .

فأما[2] البلاغة فهى على ثلاث طبقات : منها ما هو فى أعلى طبقة ، ومنها ما هو فى أدنى طبقة ، ومنها ما هو فى الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة . فما كان فى أعلاها [3] طبقة فهو معجز ، وهو بلاغة القرآن . وما كان منها دون ذلك [4] فهو ممكن كبلاغة البلغاء من الناس . وليست البلاغة إفهام المعنى ، لأنه قد يفهم المعنى متكلمان أحدهما بليغ والآخر عيى ؛ ولا البلاغة أيضًا بتحقيق اللفظ على المعنى ، لأنه قد يحقق اللفظ على المعنى وهو غث مستكره ونافر متكلف . وإنما البلاغة إيصال المعنى إلى

(١) ت : وبه توفيق . كتاب النكت فى إعجاز القرآن تأليف الشيخ أبى الحسن على بن عيسى النحوى الرمانى رحمه الله رواية القاضى الفقيه أبى الحسن على بن الحسن الخلعى رضى الله عنه . قال رحمه الله . . .

(٢) ترك الجهات الثلاث الأولى والجهات الثلاث الأخيرة ليتكلم عنها باختصار فى آخر الكتاب .

(٣) ت « فى أعلا طبقة » .

(٤) ت معجز « وما كان فيما دون ذلك » .

القلب فى أحسن صورة من اللفظ. فأعلاها طبقة فى الحسن بلاغة القرآن ، وأعلى طبقات البلاغة للقرآن خاصة ، وأعلى [١] طبقات البلاغة معجز للعرب والعجم كإعجاز الشعر المفحم ، فهذا معجز للمفحَم خاصة كما أن ذلك معجز للكافة .

والبلاغة على عشرة أقسام : الإيجاز ، والتشبيه ، والاستعارة ، والتلاؤم والفواصل ، والتجانس ، والتصريف ، والتضمين ، والمبالغة ، وحسن البيان ونحن نفسرها بابًا بابًا إن شاء الله تعالى .

باب الإيجاز[١]

الإيجاز تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى ، وإذا كان المعنى يمكن أن يعبر عنه بألفاظ كثيرة ويمكن أن يعبر عنه بألفاظ قليلة ، فالألفاظ القليلة إيجاز . والإيجاز على وجهين : حذف ، وقَصْر [٣] ، فالحذف إسقاط كلمة للاجتزاء عنها بدلالة غيرها من الحال أو فحوى الكلام . والقصر بنية الكلام على تقليل اللفظ وتكثير المعنى من غير حذف . فمن الحذف ﴿ واسْأَل القَرية ﴾ ، ومنه ﴿ وَلكِنَّ البِرَّ مَنِ اتَّقى ﴾ ، ومنه ﴿ براءَةٌ من الله ﴾ ، ومنه ﴿ طاعةٌ وقولٌ معروف ﴾ ، ومنه حذف الأجوبة ، وهو أبلغ من الذكر ، وما جاءَ منه فى القرآن كثير كقوله جل ثناؤه : ﴿ ولو أَنَّ قرآنًا سُيِّرت به الجبالُ أَو قُطِّعتْ به الأَرضُ أَو كلِّم به الموتى ﴾ كأنه قيل : لكان هذا القرآن . ومنه : ﴿ وسِيق الذين اتَّقوْا رَبَّهم إلى الجنةِ زُمَرًا حتى إذا جَاءوها وفُتِحَتْ أبوابُها ﴾ كأنه قيل : حصلوا على النعيم المقيم الذى لا يشوبه

---

(١) يكتبها أحياناً أعلا بالألف وأحياناً أعلى بالياء .
(٢) عناوين الأبواب من التيمورية
(٣) يرجع ابن سنان هذه التسمية إلى الرمانى (سر الفصاحة / ١٩٩) .

التنغيص والتكدير . وإنما صار الحذف فى مثل هذا أبلغ من الذكر لأن النفس تذهب فيه كل مذهب ، ولو ذكر الجواب لقصر على الوجه الذى تضمنه البيان ، فحذفُ الجواب فى قولك : لو رأيتَ عليًّا بين الصَّفَّين ، أبلغُ من الذكر لما بيَّناه .

وأما الإيجاز بالقصر دون الحذف فهو أغمض من الحذف وإن كان الحذف غامضًا ، للحاجة إلى العلم بالمواضع التى يصلح فيها من المواضع التى لا يصلح[١] . فمن ذلك : ﴿ ولَكُم فى القصاص حياة ﴾[٢] ، ومنه : ﴿ يَحْسَبُون كل صيحة عليهم ﴾[٣] ، ومنه ﴿ وأُخْرَى لمْ تقدرُوا عليها قد أحاط الله بها ﴾[٤] . ومنه : ﴿ إنْ يَتَّبِعون إلاَّ الظَّنَّ وما تهْوَى الأَنْفس ﴾[٥] ، ومنه ﴿ إنَّما بَغْيُكم على أَنْفُسِكم ﴾[٦] ومنه ﴿ ولا يَحيقُ المكرُ السَّيِّئُ إلا بأَهله ﴾[٧]

وهذا الضرب من الإيجاز فى القرآن كثير ، وقد استحسن الناسُ من الإيجاز قولهم : القتلُ أَنفى للقتل ، وبينه وبين لفظ القرآن تفاوت فى البلاغة والإيجاز ، وذلك يظهر من أربعة أوجه : إنه أكثر فى الفائدة ، وأوجز فى العبارة وأبعد من الكلفة بتكرير الجملة ، وأحسن تأْليفًا بالحروف المتلائمة . أما الكثرة فى الفائدة فيه ففيه كل ما فى قولهم : القتلْ أَنفى للقتل ، وزيادة معانٍ حسنة ، منها إبانه العدل [٨] لذكره القصاص ، ومنها

---

(١) ت « هذا شرح الحذف » .
(٢) [البقرة ٢ / ١٧٩] .
(٣) [المنافقون ٦٣ / ٤] .
(٤) [الفتح ٤٨ / ٢١] .
(٥) [النجم ٥٣ / ٢٣] .
(٦) [يونس ١٠ / ٢٣] .
(٧) [فاطر ٣٥ / ٤٣] .
(٨) هذه الكلمة غير واضحة فى هذه النسخة ، وهى فى ت العدل .

إبانة الغرض المرغوبِ فيه لذكره الحياة ؛ ومنها الاستدعاء بالرغبة والرهبة لحكم الله به . وأما الإيجاز فى العبارة فإن الذى هو نظير — القتل أنفى للقتل — قوله ﴿ القصاص حياة ﴾ ، والأول أربعة عشر حرفًا ، والثانى عشرة أحرف وأما بُعده من الكلفة بالتكرير الذى فيه على النفس مشقة فإن فى قولهم : القتل أنفى للقتل تكريرًا غيره أبلغ منه ، ومتى كان التكرير كذلك فهو مقصر فى باب البلاغة عن أعلى طبقة ، وأما الحسن بتأليف الحروف المتلائمة فهو مدرَك بالحس وموجود فى اللفظ . فإن الخروج من الفاء إلى اللام أعدل من الخروج من اللام إلى الهمزة لبعد الهمزة من اللام ، وكذلك الخروج من الصاد إلى الحاء أعدل من الخروج من الألف إلى اللام ، فباجتماع هذه الأمور التى ذكرناها صار أبلغَ منه وأحسن ، وإن كان الأول بليغًا حسنًا .

وظهور الإعجاز فى الوجوه التى نُبيِّنها[1] يكون باجتماع أمور يظهر بها للنفس أن الكلام من البلاغة فى أعلى طبقة ، وإن كان قد يلتبس فيما قل بما حسن[2] جدًّا لإيجازه ، وحسن رونقه ، وعذوبة لفظه ، وصحة معناه . كقول على — رضى اللهُ عنه[3] : قيمة كل امرىء ما يحسن . فهذا كلام عجيب يُغنى ظهور حسنه عن وصفه . فمِثل هذه الشذرات لا يظهر بها حكم ، فإذا انتظم الكلام حتى يكون كأقصر سورة أو أطول آية ظهر حكم الإعجاز ، كما وقع التحدى فى قوله تعالى ﴿ فأتُوا بسورة من مثله ﴾ ، فبان الإعجاز عند ظهور مقدار السورة من القرآن

والإيجاز بلاغة ، والتقصير عيى ، كما أن الإطناب بلاغة والتطويل عيى ، والإيجاز لا إخلال فيه بالمعنى المدلول عليه ، وليس كذلك التقصير ، لأنه لا بد فيه من الإخلال . فأما الإطناب فإنما يكون فى تفصيل المعنى وما يتعلق

---

(١) فى ت « بيناها » .
(٢) ت — به .
(٣) هذه العبارة فى ت « كقول على كرم الله وجهه » .

به فى المواضع التى يحسن فيها ذكر التفصيل ، فإنّ لكل واحد من الإيجاز والإطناب موضعًا يكون به أولى من الآخر ، لأن الحاجة إليه أشد ، والاهتمام به أعظم ، فأما التطويل فعيب وعِىّ ، لأنه تكلف فيه الكثير فيما يكفى منه القليل ، فكان كالسالك طريقًا بعيدًا جهلا منه بالطريق القريب . وأما الإطناب فليس كذلك لأنه كمن سلك طريقًا بعيدًا لما فيه من النزهة الكثيرة والفوائد العظيمة ، فيحمل فى الطريق إلى غرضه من الفائدة على نحو ما يحصل له بالغرض المطلوب .

والإيجاز على وجهين : أحدهما إظهار النكتة بعد الفهم لشرح الجملة ، والآخر إحضار المعنى بأقل ما يمكن من العبارة . والوجه الأول يكون كثيرًا فى العلوم القياسية ، وذلك أنه إذا فهم شرح الجملة كفى بعد ذلك حفظ النكتة ، لأنها تكون حينئذ دالة ومغنية عن التعلق بها فى نفسها ، لتعلق النكتة بها ، فهذا الضرب من الإيجاز لا يكون إلا بعد أحوال متقررة من الفهم لشرح الجملة فحينئذ تكون النكتة مغنية . وأما الوجه الآخر فمستأنف لم يقرر له حال خاصة يكون جارًا لها من حيث تعلق بها من فهم كيف وجه التعلق فيهما[1] .

والإيجاز على ثلاثة أوجه : الإيجاز بسلوك الطريق الأقرب دون الأبعد ، وإيجاز باعتماد الغرض دون ما تشعب ، وإيجاز بإظهار الفائدة بما يستحسن دون ما يستقبل ، لأن المستقبل ثقيل على النفس ؛ فقد يكون للمعنى طريقان أحدهما أقرب من الآخر[2] كقولك : تحركْ حركة سريعة ـ فى موضع أسْرعْ وقد يكتنف الغرض شعب كثيرة كالتشبيب قبل المديح ، وكالصفات

---

(١) هذه الجملة غامضة قلقة .

(٢) ت أحدهما من الآخر .

لما يعترض الكلام مما ليس عليه الاعتماد ، وإذا ظهرت الفائدة بما يستحسن فهو إيجاز لخفته على النفس .

وإذا عرفت الإيجاز ومراتبه ، وتأملت ما جاء فى القرآن منه ، عرفت فضيلته على سائر الكلام ، وهو علُّوه على غيره من سائر الكلام ، وعلوه على غيره من أنواع البيان ، والإيجاز تهذيب الكلام بما يحسن به البيان ، والإيجاز تصفية الألفاظ من الكدر وتخليصُها من الدرن ، والإيجاز البيان عن المعنى بأقل ما يمكن من الألفاظ.[1] ، والإيجاز إظهار المعنى الكثير باللفظ اليسير ، والإيجاز والإكثار إنما هما فى المعنى الواحد ، وذلك ظاهر فى جملة العدد وتفصيله كقول القائل لى عنده خمسة وثلاثة واثنان فى موضع عشرة[2] وقد يطول الكلام فى البيان عن المعانى المختلفة وهو مع ذلك فى نهاية الإيجاز . وإذا كان الإطناب لا منزلة إلا ويحسن أكثر منها فالإطناب حينئذ إيجاز كصفة ما يستحقه الله تعالى من الشكر على نعمه ، فإطناب فيه إيجاز .

باب التشبيه

التشبيه هو العَقد على أنَّ أحد الشيئين يسد مسد الآخر فى حس أو عقل ولا يخلو التشبيه من أن يكون فى القول أو فى النفس . فأما القول فنحو قولك : زيد شديد كالأسد . فالكاف عقدت المشبه به بالمشبه ، وأما العقد فى النفس فالاعتقاد لمعنى هذا القول . وأما التشبيه الحسى فكماءين وذهبين يقوم أحدهما مقام الآخر ونحوه ، وأما التشبيه النفسى فنحو تشبيه قوة

---

(١) فى الأصل تصفية الكلام ثم شطبت لفظة الكلام ووضع مقابلها فى الهامش كلمة « الألفاظ » . وفى التيمورية الكلام ولكن عودة الضمير عليها مؤنثاً يرجح « الألفاظ » .

(٢) ت فى موضع لى عنده العشرة .

زيد بقوة عمرو ، فالقوة لا تشاهد ولكنها تعلم[١] سادة مسد أخرى فتشبه. والتشبيه على وجهين [٢] : تشبيه شيئين متفقين بأنفسهما ، وتشبيه شيئين مختلفين لمعنى يجمعهما مشترك بينهما . فالأول كتشبيه الجوهر بالجوهر وتشبيه السواد بالسواد والثانى كتشبيه الشدة بالموت والبيان بالسحر الحلال . والتشبيه البليغ إخراج الأغمض إلى الأظهر بأداة التشبيه مع حسن التأليف .

وهذا الباب يتفاضل فيه الشعراء وتظهر فيه بلاغة البلغاء ، وذلك أنه يكسب الكلام بيانًا عجيبًا . وهو على طبقات فى الحسن كما بينا . فبلاغة التشبيه الجمع بين شيئين بمعنى يجمعهما يكسب بيانًا فيهما . والأظهر الذى يقع فيه البيان بالتشبيه به على وجوه : منها إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة . ومنها إخراج ما لم تجربه عادة إلى ما جرت به عادة ، ومنها إخراج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بالبديهة ، ومنها إخراج مالا قوة له فى الصفة إلى ماله قوة فى الصفة .فالأول نحو تشبيه المعدوم بالغائب ، والثانى تشبيه البعث بعد الموت بالاستيقاظ بعد النوم ، والثالث تشبيه إعادة الأجسام بإعادة الكتاب ، والرابع تشبيه ضياء السراج بضياء النهار .

التشبيه على وجهين : تشبيه بلاغة وتشبيه حقيقة . فتشبيه البلاغة كتشبيه أعمال الكفار بالسراب . وتشبيه الحقيقة نحو : هذا الدينار كهذا الدينار فخذ أيهما شئت . ونحن نذكر بعض ما جاء فى القرآن من التشبيه ، وننبه على ما فيه من البيان بحسب الإمكان [٣] . فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ والذين كَفَرُوا أعمالُهم كسراب بقيعة يحسَبُهُ الظمآنُ ماءً حتَّى إذا جاءه

---

(١) ت ولكنه سادة .

(٢) راجع رقم ٣ من ملحق تعليقات المتأخرين .

(٣) ت والله المبين على الصواب .

لم يَجِدْهُ شيئًا) [١] فهذا بيان قد أَخْرَجَ مالا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه [٢] ، وقد اجتمعا فى بطلان المتوهم مع شدة الحاجة وعظم الفاقة ، ولو قيل يحسبه الرائى ماءً ثم يظهر أنه على خلاف ما قَدَّر لكان بليغًا ، وأبلغ منه لفظ القرآن ، لأَن الظمآن أَشد حرصًا عليه وتعلق قلب به ، ثم بعد هذه الخيبة حصل على الحساب الذى يصيره إلى عذاب الأَبد فى النار – نعوذ بالله من هذه الحال – وتشبيه أَعمال الكفار بالسراب من حسن التشبيه ، فكيف إذا تضمن مع ذلك حسن النظم وعذوبة اللفظ وكثرة الفائدة ، وصحة الدلالة .

ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿ مَثَلُ الذين كفروا بِربِّهم أَعمالُهم كرماد اشتدتْ به الرِّيحُ فى يوم عاصف لا يقدرون مِمَّا كَسَبوا عَلَى شىء ﴾[٣] فهذا بيان قد أَخْرَج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه ، فقد اجتمع المشبه والمشبه به فى الهلاك وعدم الانتفاع والعجز عن الاستدارك لما فات ، وفى ذلك الحسرة العظيمة والموعظة البليغة ، ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿ واتْلُ عليهِمْ نبأَ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ مِنها ﴾[٤] ثم قال : ﴿ فمَثَلُهُ كمثل الكلب إِنْ تحْملْ عليه يَلْهَثْ أَوْ تتركْهُ يَلْهَث ﴾[٥] فهذا بيان قد أَخرج ما لا تقع عليه الحاسَّة إلى ما تقع عليه ، وقد اجتمعا فى ترك الطاعة على وجه من وجوه التدبير وفى التخسيس ؛ فالكلب لا يطيعك فى ترك اللهث حملت عليه أَو تركته ، وكذلك الكافر لا يطيع بالإيمان على رفق ولا على عُنْف ، وهذا يدل على حكمة الله سبحانه وتعالى فى أَنه لا يمنع اللطف . وقال تعالى : ﴿ والَّذينَ يَدْعُون مِنْ دُونه لا يستجيبون لهُم بشىءٍ إِلاَّ كباسِطِ كَفَّيهِ إِلى المَاءِ ليَبْلُغَ فاهُ وَما هُو

---

(١) [النور ٢٤ / ٣٩] .
(٢) ت الحاسة .
(٣) [إبراهيم ١٤ / ١٨] .
(٤) [الأعراف ٥٧ / ١٧] .
(٥) [الأعراف ٦٧ / ١٧] .

ببالِغه ﴾[١] فهذا بيان قد أُخرج مالا تقع عليه الحاسّة إلى ما تقع عليه ، وقد اجتمعا فى الحاجة إلى نيل المنفعة ، والحسرة بما يفوت من درك الطلبة ، وفى ذلك الزجر عن الدعاءِ إلا لِلّه عز وجل الذى يملك النفع والضر ، ولا يضيع عنده مثقال الذر . وقال عز وجل ﴿ وإِذْ نَتَقْنا الجبَلَ فوقهم كأَنه ظلة ﴾ وهذا بيان قد أَخرج ما لم تجر به عادة إلى ما قد جرت به العادة ، وقد اجتمعا فى معنى الارتفاع فى الصورة ، وفيه أَعظم الآية لمن فكر فى مقدورات الله تعالى عند مشاهدته لذلك أَو عمله به ليطلب الفوز من قبله ، ونيل المنافع بطاعته . وقال عز وجل : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الحياةِ الدُّنيا كماءٍ أَنزلناهُ من السماءِ فاخْتَلَطَ به نباتُ الأَرْض ﴾[٢] الآية ، وهذا بيان قد أَخرج ما لم تجر به عادة إلى ماقد جرت به وقد اجتمع[٣] والمشبه به فى الزينة والبهجة ثم الهلاك بعده ، وفى ذلك العبرة لمن أعتبر ، والموعظة لمن تفكر فى أَن كل فان حقيرٌ وإن طالت مدته ، وصغيرٌ وإن كبر قدره . وقال عز وجل : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنا عليهم ريحًا صَرْصَرًا فى يوم نَحْس مستَمِر . تنْزِعُ النَّاسَ كأَنهم أَعجاز نخل مُنْقعِر ﴾[٤] وهذا بيان قد أَخرج ما لم تجر به عادة إلى ما قد جرت به ، وقد اجتمعا فى قلع الريح لهما ، وإهلاكها إياهما . وفى ذلك الآية الدالة على عظيم القدرة والتخويف من تعجيل العقوبة . وقال عز وجل : ﴿ فإِذا انشقَّتِ السَّماءُ فكانتْ وردةً كالدِّهان ﴾[٥] فهذا تشبيه قد أَخرج ما لم تجْر به عادةٌ إلى ما قد جرت به ، وقد اجتمعا فى الحمْرة ، وفى لينِ الجواهر السيالة وفى ذلك الدلالةُ على عظيم الشأن ونفوذ السلطان ، لتنصرف الهممُ بالأَمل إلى ما هناك[٦] . وقال عز وجل : ﴿ اعلَموا

---

(١) [الرعد ١٣ / ١٤] .
(٢) [يونس ١٠ / ٢٤] .
(٣) المشبه والمشبه به .
(٤) [القمر ٥٤ / ٢٠] .
(٥) [الرحمن ٥٥ / ٣٧] .
(٦) ت « لتنصرف الهمم إلى ما هناك بالأمل » .

أَنَّمَا الحياةُ الدُّنيا لعبٌ ولهوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ بينكم وتكاثُرٌ فى الأَموالِ والأَولاد كمَثَلِ غيثٍ أَعْجَبَ الكفَّارَ نباته ﴾[١] الآية ، فهذا تشبيه قد أخرج مالم تجر به عادة إلى ما قد جرت به ، وقد اجتمعا فى شدة الإعجاب ثم فى التغيير بالانقلاب ، وفى ذلك الاحتقارُ للدنيا والتحذير من الاغترار بِهَا والسكون إليها . وقال عز وجل : ﴿ وجنةٍ عرضُها كعرْض السَّماءِ والأَرض ﴾[٢] فهذا تشبيه قد أخرج مالا يُعلم بالبديهة إلى ما يُعلم ، وفى ذلك البيانُ العجيبُ بما قد تقرر فى النفس من الأُمور ، والتشويقُ إلى الجنةِ بحسن الصفة مع مالها من السعة ، وقد اجتمعا فى العظم ، وقال عز وجل ﴿ مَثَلُ الَّذِين حُمِّلُوا التوارةَ ثُمَّ لم يحْمِلُوها كمثل الحمار يحْمِلُ أَسْفارًا ﴾[٣] ، وهذا تشبيه قد أَخْرَج مالا يُعلم بالبديهة إلى ما يُعلم بالبديهة ، وقد اجتمعا فى الجهل بما حَمَلا ، وفى ذلك العيبُ لطريقةِ مَنْ ضيَّع العلم بالاتكال على حفظ الرواية من غير دراية . وقال عز وجل : ﴿ كَأَنَّهم أَعجازُ نخلٍ خاويةٍ ﴾[٤] وهذا تشبيه قد أَخرج مالا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم ، وقد اجتمعا فى خلو الأَجساد من الأَرواح ، وفى ذلك الاحتقارُ لكل شىء يؤول به الأَمر إلى ذلك المآل . وقال عزوجل : ﴿ مثلُ الذين اتَّخَذُوا من دون الله أَوْلِيَاءَ كَمَثَل العَنْكبُوت ﴾[٥] الآية . فهذا تشبيه قد أَخرج مالا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بالبديهة وقد اجتمعا فى ضعف المُعتَمَد ، ووهاء المُسْتَنَد ، وفى ذلك التحذيرُ من حملِ النفس على الغرور بالعمل على غير يقين ، مع الشعور بما فيه التوهين .

وقال عز وجل : ﴿ وله الجَوار المنشَآتُ فى البَحْرِ كالأَعلام ﴾[٦] فهذا

---

(١) [الحديد ٥٧/٢٠] .
(٢) [الحديد ٥٧/٢١] .
(٣) [الجمعة ٦٢/٥] .
(٤) [الحاقة ٦٩/٧] .
(٥) [العنكبوت ٢٩/٤١] .
(٦) [الرحمن ٥٥/٢٤] .

تشبيه قد أخرج مالا قوةَ له فى الصِّفة إلى ماله قوة فيها ، وقد اجتمعا فى العظم ، إلا أن الجبال أعظم . وفى ذلك العبرةُ من جِهة القدرةِ فيما سخَّر من الفُلْكِ الجارية مع عظمها ، وما فى ذلك من الانتفاع بها ، وقطع الأقطار البعيدة فيها. وقال عز وجل : ﴿ خَلَقَ الإِنسانَ من صَلْصال كالفَخَّار ﴾ (١). وهذا تشبيه قد أخرج مالا قوة له فى الصفة إلى ماله القوةُ وقد اجتمعا فى الرخاوة والجفاف ، وإن كان أحدهما بالنار والآخر بالريح . وقال عز وجل : ﴿ أَجعلْتُم سِقَايَةَ الحاجّ وعِمَارةَ المَسْجدِ الحرَامِ كمنْ آمنَ باالله ﴾(٢) .(وفى هذا إنكار لأن تجعل حرمة السقاية والعمارة كحرمة من آمن وكحرمة الجهاد) (٣) وهو بيان عجيب ، وقد كشفه التشبيه بالإيمان الباطل والقياس الفاسد، وفى ذلك الدلالةُ على تعظيم حال المؤمن بالإيمان ، وأنه لايُساوَى به مخلوق على صفته فى القياس . ومثله ﴿ أَمْ حَسِب الذين اجترحُوا السَّيِّئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُم كالَّذِين آمنوا وعمِلُوا الصَّالحات ﴾(٤) .

باب الاستعارة

الاستعارةُ تعليق العبارة على غير ما وضعت له فى أصل اللغة على جهة النقل للإبانة . والفرق بين الاستعارة والتشبيه أنَّ ـ ما كان من التشبيه ـ(٥) بأداة التشبيه فى الكلام فهو على أصله ، لم يغير عنه فى الاستعمال ، وليس كذلك

---

(١) [الرحمن ٥٥/١٤] . (٢) [التوبة ٩/١٩] .

(٣) هذه العبارة فى الأصل مضطربة وهى هكذا : « فهذا إنكار لأن تجعل حرمة الجهاد كحرمة من آمن بالله » ونرى أن الصحيح ما أثبتناه . وقد أوردها ابن أبى الإصبع كما يلى : وهذا إنكار على من جعل حرمة الجهاد كحرمة من آمن بالله واليوم الآخر (بدائع القرآن . نسخة دار الكتب . ورقة ١٩ ب) .

(٤) [الجاثية ٢٥ / ٢١] . (٥) هذه الزيادة من الهامش .

الاستعارة ، لأن مخرج الاستعارة مخرجُ ما العبارة [ليست][1] له فى أصل اللغة .

وكل استعارة فلابد فيها من أشياءَ : مستعار ومستعار له، ومستعار منه . فاللفظ المستعار قد نقل عن أصل إلى فرع للبيان . وكل استعارة بليغة فهى جمعٌ بين شيئين بمعنى مشترك بينهما يكسب بيان أحدهما بالآخر كالتشبيه ، إلا أنه بنقل الكلمة والتشبيه بأداته الدالة عليه فى اللغة . وكل استعارة حسنة فهى توجب بيان لا تنوب منابه الحقيقة ، وذلك أنه لو كان تقوم مقامه الحقيقة ، كانت أولى به ، ولم تَجُزْ الاستعارة . وكل استعارة فلابد لها من حقيقة ، وهى أصل الدلالة على المعنى فى اللغة كقول امرئ القيس فى صفة الفرس : « قيد الأوابد » والحقيقة فيه : مانع الأوابد ، وقيد الأوابد أبلغ وأحسن . وكقولك : ميزان القياس ، حقيقته تعديل القياس ، والاستعارة فيه أبلغ وأحسن . فكل استعارة لابد لها من حقيقة . ولا بد من بيان لايفهم بالحقيقة . ونحن نذكر ما جاء فى القرآن من الاستعارة على جهة البلاغة ، قال الله عز وجل : ﴿ وقَدِمْنَا إلى ما عَمِلُوا من عَمَلٍ فجعلنَاهُ هباءً منْثُورًا ﴾[2] . حقيقة قدِمنا هنا عمدْنَا وقدِمنا أبلغُ منه لأنه يدل على أنه عاملهم معاملة القادم من سفر، لأنه [عاملهم][3] من أجل إمهاله لهم كمعاملة الغائب عنهم ، ثم قَدِم فرآهم على خلاف ما أمرهم . وفى هذا تحذيرٌ من الاغترار بالإمهال ، والمعنى الذى يجمعهما العدل ، لأن العمد إلى إبطال الفاسد عدل ، والقدوم أبلغ لما بيَّنا . وأما هباء منثورًا فبيان قد أخرج مالا تقع عليه الحاسة

---

(١) أضفنا كلمة (ليست) لتستقيم العبارة ويصح المراد ، ونصها فى « سر الفصاحة » (ص ١١١) « وليس كذلك الاستعارة لأن مخرج الاستعارة مخرج ما ليست العبارة له فى أصل اللغة . (وراجع رقم ٤ فى ملحق تعليقات المتأخرين) .

(٢) [الفرقان ٢٥ / ٢٣] .

(٣) زيدت هذه الكلمة ليستقيم السياق .

إلى ما تقع عليه حاسة . وقال عز وجل : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَر ﴾[١] . حقيقته فَبَلِّغْ ما تؤمر به ، والاستعارة أبلغ من الحقيقة ، لأن الصدع بالأمر لابد له من تأثير كتأثير صدع الزجاجة ، والتبليغُ قد يصعب حتى لايكونَ له تأثير فيصير بمنزله ما لم يقع . والمعنى الذى يجمعهما الإيصال ، إلا أن الإيصال الذى له تأثير كصدع الزجاجة أبلغ . وقال عز وجل : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الماءُ حَمَلْنَاكُم فِى الجَارِية ﴾ [٢] . حقيقته عَلاَ والاستعارةُ أبلغ لأن طغى عَلاَ قاهرًا ، وهو مبالغة فى عظم الحال . وقال عز وجل : ﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتية ﴾ [٣] . حقيقته شديدة ، والْعُتُوّ أَبْلغُ منه لأَنَّ العتوّ شدة فيها تمرد . وقال تعالى : ﴿ سَمِعُوا لها شهيقاً وهى تفورُ تكَادُ تمَيَّزُ من الْغَيْظِ ﴾ [٤] ، شهيقاً حقيقته صوتًا فظيعًا كشهيق الباكى ، والاستعارة أبلغ منه وأوجز ، والمعنى الجامع بينهما قبح الصوت . ﴿ تَمَيَّزُ من الغيظ ﴾ حقيقته : من شدة الغليان بالانقاد ، والاستعارة أبلغ منه ،لأن مقدار شدة الغيظ على النفس محسوس ، مدرك [مدى]ما يدعو إليه من شدة الانتقام، فقد اجتمع شدة فى النفس تدعو إلى شدة انتقام فى الفعل، وفى ذاك أعظم الزجر وأكبر الوعظ ،وأدل دليل على سعة القدرة وموقع الحكمة. ومنه : ﴿ إِذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لها تَغَيُّظًا وزَفيرًا ﴾[٥] أى تَسْتَقْبلُهُم [للإيقاع بهم استقبال مغتاظ يزفِرُ غيظًا عليهم . وقال تعالى : ﴿ وإِنَّه فى أُمِّ الكتابِ لَدَيْنَا ﴾[٦]. وحقيقته أصل الكتاب ، وهو أبلغ لأن الأم أجمع وأظهر فيما يُرَدُّ إليه مما ينشأ عنه ، وقال تعالى: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عن موسى الغَضَبُ ﴾[٧]. وحقيقته انتفاءُ الغضب ، والاستعارة أبلغ لأنه انتفى انتفاء مُراصدٍ بالعودة ، فهو كالسكوت على مراصدة

---

(١) [الحجر ١٥ / ٩٤] .
(٢) [الحاقة ٦٩/١١] .
(٣) [الحاقة ٦٩ / ٦] .
(٤) [الملك ٦٧ / ٨] .
(٥) [الفرقان ٢٥ / ١٢] .
(٦) [الزخرف ٤٣/٤] .
(٧) [الأعراف ٧/١٥٢] .

الكلام بِما تُوجبه الحكمة فى الحال ، فانتفى الغضب بالسكوت عما يكره ، والمعنى الجامع بينهما الإمساك عما يكره . وقال تعالى : ﴿ ذَرنى ومن خلقتُ وحيدًا ﴾[١] . ذرنى ها هنا مستعار ، وحقيقته : ذر عقابى ومن خلقت وحيدًا بترك مسألتى فيه ، إلا أنه أخرج لتفخيم الوعيد مخرج ذرنى وإياه لأنه أبلغ ، وإن كان الله تعالى لايجوز عليه المنع ، وإنما صار أبلغ لأنه لامنزلة من العقاب إلا وما يقدر الله تعالى عليه منها أعظم . وهذا أعظم ما يكون من الزجر . وقال تعالى : ﴿ سنفرُغُ لكُم أيُّها الثَّقَلان ﴾[٢] والله عز وجل لا يشغله شأن عن شأن ، ولكن هذا أبلغ فى الوعيد ، وحقيقته سنعمد ، إلا أنه لما كان الذى يعمِد إلى شىء قد يُقَصِّر فيه لشغله بغيره معه ، وكان الفارغ له هو البالغ فى الغالب مما يجرى به التعارف ، دلَّنا بذلك على المبالغة من الجهة التى هى أعرف عندنا لما كانت بهذه المنزلة ، ليقع الزجر بالمبالغة التى هى أعرف عند العامة والخاصة موقعَ الحكمة . وقال تعالى : ﴿ فمحوْنا آيةَ اللَّيْل وجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَار مُبْصِرَةً ﴾[٣] . فمبصرة ها هنا استعارة ، وحقيقتها مضيئة ، وهى أبلغ من مضيئة ، لأنه أدل على موقع النعمة ، لأنه يكشف عن وجه المنفعة . قيل : هو بمعنى ذات إبصار وعلى هذا يكون حقيقة . وقال تعالى : ﴿ واشْتَعَل الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾[٤] . أصل الاشتعال للنار وهو فى هذا الموضع أبلغ . وحقيقته كثرة شيب الرأس ، إلا أن الكثرة لما كانت تتزايد تزايدًا سريعًا صارت فى الانتشار والإسراع كاشتعال النار .. وله موقع فى البلاغة عجيب ، وذلك أنه انتشر فى الرأس انتشارًا لا يُتلافى كاشتعال النار . وقال تعالى : ﴿ بل نقْذِفُ بالحَقِّ على الباطِلِ فيدْمَغُهُ فإذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾[٥] . فالقذف

---

(١) [المدثر ٧٤ / ١١] . (٢) [الرحمن ٥٥ / ٣١] . (٣) [الإسراء ١٧ / ١٢]
(٤) [مريم ١٩/ ٤] . (٥) [الأنبياء ٢١ / ٣٨] .

والدمغ هنا مستعار وهو أبلغ ، وحقيقته : بل نورد الحق على الباطل فيُذْهبه، وإنما كانت الاستعارة أبلغ لأن فى القذف دليلا على القهر، لأنَّك إذا قلت : قذف به إليه فإنما معناه ألقاه إليه على جهة الإكراه والقهر ، فالحق يلقى على الباطل فيزيله على جهة القهر والاضطرار لا على جهة الشك والارتياب ، ويَدمغه أبلغ من يُذهبه لما فى يدمغه من التأثير فيه فهو أظهر فى النكاية وأعلى فى تأثير القوة .

وقال تعالى : ﴿ عذابُ يومٍ عقيمٍ ﴾[1] وعقيم ها هنا مستعار وحقيقته ها هنا مُبير ، والاستعارة أبلغ لأنه قد دل على أن ذلك اليوم لاخير بعده للمعذبين ، فقيل : يوم عقيم ، أى لا ينتج خيراً ، ومعنى الهلاك فيهما إلا أن أحد الهلاكين أعظم . وقال تعالى : ﴿ وآية لهُم اللَّيل نسلَخُ منه النهارَ فإذا هُم مظْلِمون ﴾[2] نسلخ مستعار ، وحقيقته : يخرج منه النهار . والاستعارة أبلغ لأن السلخ إخراج الشىء مما لابسه وعسر انتزاعه منه لالتحامه به ، فكذلك قياس الليل . وقال تعالى ﴿ فأَنْشَرْنا بِه بَلْدةً ميتًا ﴾[3] النشر ها هنا مستعار ، وحقيقته : أظهَرْنا به النبات والأشجار والثمار فكانت كمن أحييناه بعد إماتته ، فكأنه قيل : أحيينا به بلدة ميتاً من قولك : أنشر الله الموتى فنشروا . وهذه الاستعارة أبلغ من الحقيقة لتضمنها من المبالغة ما ليس فى أظْهَرْنا ، والإظهار فى الإحياء والإنبات إلا أنه فى الإحياء أبلغ . وقال تعالى : ﴿ وَتَوَدُّون أَنَّ غيرَ ذاتِ الشَّوْكةِ تكُونُ لكُمْ ﴾[4] اللفظ ها هنا بالشوكة مستعار ، وهو أبلغ ، وحقيقته السلاح ، فذكر الحد الذى به تقع المخافة واعتمد على الإيماء إلى النكتة ، وإذا كان السلاح يشتمل على

---

(١) [الحج ٢٢/٥٥] .
(٢) [يس ٣٧ / ٣٦] .
(٣) [الزخرف ٤٣ / ١١] .
(٤) [الأنفال ٨/٧] .

ما له حد وما ليس له حد ، فشوكة السلاح هى التى تبقى . وقال تعالى : ﴿ وإذا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيض ﴾[١] عريض ها هنا مستعار ، وحقيقته كبير، والاستعارة فيه أبلغ لأنه أظهر بوقوع الحاسة عليه ، وليس كذلك كل كثرة . وقيل : عريض لأن العرض أدل على الطول . وقال تعالى : ﴿ حتى تضع الحربُ أَوْزارها ﴾[٢] وهذا مستعار ، وحقيقته : حتى يضع أهل الحرب أثقالها ، فجعل وضع أهلها الأثقال وضعاً لها على جهة التفخيم لشأنها وقال تعالى : ﴿ والصُّبْحِ إِذَا تنفَّس ﴾[٣] وتنفس ها هنا مستعار ، وحقيقته إذا بدأ انتشاره ، وتنفس أبلغ منه ، ومعنى الابتداء فيهما ، إلا أنه فى التنفس أبلغ لما فيه من الترويح عن النفس ، وقال تعالى : ﴿ فأَذَاقَها الله لِبَاسَ الجُوعِ والخوْفِ ﴾[٤] وهذا مستعار ، وحقيقته أجاعها الله وأخافها والاستعارة أبلغ ، لدلالتها على استمرار ذلك بهم كاستمرار لباس الجلد وما أشبهه . وإنما قيل ذاقوه لأنه كما يجد الذائق مرارة الشىء فهم فى الاستمرار كتلك الشدة فى المذاقة ، وقال تعالى ﴿ مسَّتهُم البأْساءُ والضَّرّاءُ وزُلْزِلُوا ﴾[٥] وهذا مستعار ، وزلزلوا أبلغ من كل لفظ كان يعبر به عن غلظ ما نالهم . ومعنى حركة الإزعاج فيهما ، إلا أن الزلزلة أبلغ وأشد . وقال تعالى : ﴿ رَبَّنا أَفْرِغْ علينا صَبْراً ﴾[٦] . أفرغ مستعار وحقيقته افعل بنا صبراً ، وأفرغ أبلغ منه لأن فى الإفراغ اتساعاً مع بيان ، وقال عز وجل : ﴿ ضُرِبَتْ عليْهِمُ الذِّلة أينما ثُقِفُوا إلاَّ بحَبْلٍ من الله وَحَبْلٍ مِن النَّاسِ ﴾[٧] حقيقته حصلت عليهم الذلة . والاستعارة أبلغ لما فيه من الدلالة على تثبيت ما حصل

---

(١) [فصلت ٤١ / ٥١] .
(٢) [محمد ٤٧ / ٤] .
(٣) [التكوير ٨١/١٨) .
(٤) [النحل ١٦/١٢] .
(٥) [البقرة ٢ /٢١٤) .
(٦) [البقرة ٢/٢٥٠] .
(٧) [آل عمران ٣ /١١٢] .

عليهم من الذلة كما يثبت الشئ بالضرب لأن التمكين به محسوس ، والضرب مع ذلك ينبئ عن الإذلال والنقص[١] ، وفى ذلك شدة الزجر لهم والتنفير من حالهم ، وقال تعالى : ﴿ فَنَبَذُوه وَرَاءَ ظُهُورِهِم ﴾ حقيقته تعرضوا للغفلة عنه ، والاستعارة أبلغ لما فيه من الإحالة على ما يتصور . وقال تعالى : ﴿ ربَّنا أَنْزِل علينا مائِدةً مِن السَّمَاءِ تكونُ لنا عِيدًا ﴾[٢] حقيقته تكون لنا ذات سرور ، والاستعارة أبلغ لما للإحالة فيه على ما قد جرت العادة بمقدار السرور به . وقال تعالى : ﴿ وإذا رَأَيْتَ الَّذين يخُوضون فى آياتِنا ﴾[٣] كل خوض ذمه الله تعالى فى القرآن فلفظه مستعار من خوض الماء ، وحقيقته : يذكرون آياتنا ، والاستعارة أبلغ لإخراجه إلى ما تقع عليه المشاهدة من الملابسة ، لأنه لاتظهر ملابسة المعانى لهم كما تظهر ملابسة الماء لهم . وقال تعالى : ﴿ فدلَّاهُما بغُرُورٍ ﴾[٤] وحقيقته صيرهما إلى الخطيئة بغرور ، والاستعارة أبلغ لإخراجه إلى ما يحس من التدلى من علو إلى سُفل . وقال تعالى : ﴿ لايَزَالُ بُنْيانُهم الَّذِى بَنَوْا رِيبةً فى قُلُوبهم ﴾[٥] وقال تعالى : ﴿ أَفمنْ أسس بنيَانه على تَقْوى من الله ورضوانٍ ﴾[٦] الآية . كل هذا مستعار ، وأصل البنيان إنما هو للحيطان وما أشبهها ، وحقيقته اعتقادهم الذى عملوا عليه ، والاستعارة أبلغ لما فيها من البيان بما يحس ويتصور ، وجعل البنيان ريبة وإنما هو ذو ريبة ، والاستعارة أبلغ ، كما تقول : هو خبث كله ، وذلك

---

(١) هذا التعليل محل النظر فمثل هذا الأسلوب تستعمله العرب أحياناً حيث لا يلحظ الإذلال ولا النقص كقول الشاعر :

إن السماحة والمروءة والندى ... فى قبة ضربت على ابن الحشرج

(٢) [المائدة ٥/١١٤] .
(٣) [الأنعام ٦ / ٦٨] .
(٤) [الأعراف ٧ / ٢٢] .
(٥) [التوبة ٩/١١٠] .
(٦) [التوبة ٩/١٩٠] .

أبلغ من أن يجعله ممتزجًا ، لأن قوة الذم للريبة ، فجاء على البلاغة لا على الحذف الذى إنما يراد به الإيجاز فى العبارة فقط. . وقال تعالى : ﴿ الذين يصُدُّون عن سَبيل اللهِ ويبغُونَها عِوَجًا ﴾[١] العوج ها هنا مستعار ، وحقيقته خطأ والاستعارة أبلغ لما فيه من البيان بالإحاطة على ما يقع عليه الإحساس من العدول عن الاستقامة بالاعوجاج . وقال عز وجل : ﴿ لَوْ أَنَّ لى بِكُمْ قُوَّةً أو آوِى إلى رُكْن شدِيدٍ ﴾[٢] أصل الأركان للبنيان ، ثم كثر واستعير حتى صار الأعوان أركانًا للمُعان ، والحجج أركانًا للإسلام ، وحقيقته إلى مُعين شديد . الاستعارة أبلغ لأن الركن يحس ، والمعين لا يحس من حيث هو معين . قال تعالى : ﴿ أتاهَا أمرُنا ليلاً أو نَهارًا فَجَعَلْناها حَصيدًا كأَنْ لمْ تغْنَ بالأَمسِ ﴾[٣] أصل الحصيد للنبات ، حقيقته مهلكة ، والاستعارة أبلغ لما فيه من الإحالة على إدراك البصر . وقال عز وجل ﴿ الر ، كتابٌ أنزلناهُ إليك لتُخْرِجَ الناسَ من الظلماتِ إلى النُّور ﴾[٤] . كل ما جاء فى القرآن من ذكر من الظلمات إلى النور فهو مستعار ، وحقيقته من الجهل إلى العلم ، والاستعارة أبلغ لما فيه من البيان بالإخراج إلى ما يدرك بالأبصار . وقال تعالى : ﴿ حصيدًا خامِدِين ﴾[٥] أصل الخمود للنار وحقيقته هادئين ، والاستعارة أبلغ لأن خمود النار أقوى فى الدلالة على الهلاك ، على حد قولهم : طُفِئَ فُلانٌ كما يُطفأُ السِّراج . وقال عز وجل : ﴿ ألم تَر أنَّهم فى كُلِّ وادٍ يَهِيمُون ﴾[٦] واد هنا مستعار ، وكذلك الهَيَمان ، وهو من أحسن البيان ، وحقيقته يخلطون فيما يقولون ، لأنهم ليسوا على قصد لطريق الحق ، والاستعارة أبلغ

---

(١) [الأعراف ٧/ ٤٥] .
(٢) [هود ١١/ ٨٠] .
(٣) [يونس ١٠ / ٢٤] .
(٤) [إبراهيم ١٤ / ١] .
(٥) [الأنبياء ٢١ / ١٥] .
(٦) [الشعراء ٢٦ / ٢٢٥] .

لما فيه من البيان بالإخراج إلى ما يقع عليه الإدراك من تخليط الإنسان بالهيمان فى كل واد يعن له فيه الذهاب . وقال تعالى : ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾(١) السراج ها هنا مستعار وحقيقته مبينًا ، والاستعارة أبلغ للإحالة على ما يظهر بالحاسة . وقال عز وجل : ﴿ يا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنا من مَرْقَدِنا ﴾(٢) أصل الرقاد النوم وحقيقته من مهلكنا ، والاستعارة أبلغ لأن النوم أظهر من الموت ، والاستيقاظ أظهر من الإحياء بعد الموت ، لأن الإنسان الواحد يتكرر عليه النوم واليقظة ، وليس كذلك الموت والحياة . وقال تعالى : ﴿ وتَرَكْنَا بعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يمُوجُ فى بعْض ﴾(٣) أصل الموج للماء وحقيقته تخليط بعضهم ببعض ، والاستعارة أبلغ ، لأن قوة الماء فى الاختلاط أعظم . وقال تعالى : ﴿ وفى عاد إِذْ أَرسلْنا عليهِم الرِّيحَ العَقيم ﴾(٤) العقيم مستعار للريح ، وحقيقته ريح لا يأتى بها سحاب غيث ، والاستعارة أبلغ لأن حال العقيم أظهر من حال الريح التى لا تأتى بمطر ، لأن مالا يقع من أجل حال منافية أوكد مما يقع من غير حال منافية وأظهر . وقال عز وجل : ﴿ ولا تَجْعَلْ يدَكَ مغلولةً إِلى عُنُقِكَ ولا تبسُطْهَا كُلَّ البسْطِ ﴾(٥) ، حقيقته لا تمنع نائلك كل المنع ، والاستعارة أبلغ لأنه جعل منع النائل بمنزلة غل اليد إلى العنق ، وذلك مما يحسن حالُ التشبيه فيه بالمنع فيهما إلا أن حال المغلول اليد أظهر وأقوى فيما يكره . وقال تعالى : ﴿ ولَنُذِيقَنَّهم من العذَاب الأَدْنَى دُونَ العَذَابِ الأَكْبَرِ ﴾(٦) حقيقته لنعذبنَّهم ، والاستعارة أبلغ ، لأن إحساس الذائق أقوى لأنه طالب لإدراك ما يذوقه ، ولأنه جعل بدل إحساس

---

(١) [الأحزاب ٣٣/٤٦] .
(٢) [يس ٣٦ / ٥٢٣] .
(٣) [الكهف ١٨ /٩٩] .
(٤) [الذاريات ٥١ / ٤١] .
(٥) [الإسراء ١٧ / ٢٩] .
(٦) [السجدة ٢١/ ٣٢] .

الطعام المستلذ إحساس الآلام ، لأن الأسبق فى الذوق ذوق الطعام . وقال تعالى : ﴿ فَضربْنَا عَلَى آذانهم فى الكَهفِ سِنِينَ عدَدَا ﴾[١] حقيقته منعناهم الإحساس بآذانهم من غير صمم ، والاستعارة أبلغ لأنه كالضرب على الكتاب فلا يقرأ ، كذلك المنع من الإحساس فلا يُحسُّ ، وإنما دل على عدم الإحساس بالضرب على الآذان دون الضرب على الأبصار ، لأنه أدل على المراد من حيث كان قد يضرب على الأبصار من غير عمى فلا يبطل الإدراك رأسًا ، وذلك بتغميض الأجفان ، وليس كذلك منع الإسماع من غير صمم فى الآذان ، لأنه إذا ضرب عليها من غير صمم دل على عدم الإحساس من كل جارحة يصح بها الإدراك ، ولأن الأذن لما كانت طريقًا إلى الانتباه ثم ضُربوا عليها لم يكن سبيل إليه . وقال عز وجل : ﴿ ثُم نُكِسُوا على رُؤوسِهم ﴾[٢] هذا استعارة ، حقيقته أطرقوا للمذلة عند لزوم الحجة ، إلا أنه بولغ فى العبارة بجعلهم كالواقع على رأسه للحيرة بما نزل به من الآبدة . وقال تعالى : ﴿ ولما سُقطَ فى أيْدِيهم ﴾[٣] هذا مستعار وحقيقته : ندموا لما رأوا من أسباب الندم ، إلا أن الاستعارة أبلغ للإحالة فيه على الإحساس لما يوجب الندم بما سقط فى اليد ، فكانت حاله أكشف فى سوء الاختيار لما يوجب من الوبال .

باب التلاؤم

التلاؤم نقيض التنافر ، والتلاؤم تعديل الحروف فى التأليف ، والتأليف على ثلاثة أوجه[٤] :

---

(١) [الكهف ١١/١٨] .
(٢) [الأنبياء ٢١ / ٦٥] .
(٣) [الأعراف ١٤٩/٧] .
(٤) راجع رقم ٥ فى ملحق تعليقات المتأخرين .

متنافر ، ومتلائم فى الطبقة الوسطى ، ومتلائم فى الطبقة العليا .

فالتأليف المتنافر كقول الشاعر :

وقبرُ حرْب بمكان قَفْـرُ وليسَ قُربَ قَبْرِ حربٍ قبرُ[1]

وذكروا أَن هذا من أَشعار الجن لأَنه لا يتهيأ لأَحد أَن ينشده ثلاث مرات فلا يتَتَعْتَعُ ، وإِنما السبب فى ذلك ما ذكرنا من تنافر الحروف .

وأَما التأليف المتلائم فى الطبقة الوسطى – وهو من أَحسنها – فكقول الشاعر :

رَمتْنِى وسِتْرُ الله بينى وبينَها عَشِيَّةَ آرام الكِنَاس رميمُ
(رميمُ التى قالَت لجيرانِ بيْتِها ضَمِنْتُ لكم أَلاَّ يزالَ يهيمُ)[2]
أَلا رُبَّ يومٍ لو رمتْنِى رَمَيْتُها ولكنَّ عهْدِى بالنِّضَالِ قديمُ[3]

والمتلائم فى الطبقة العليا القرآنُ كله ، وذلك بيِّن لمن تـأَمله . والفرق بينه وبين غيره من الكلام فى تلاؤم الحروف على نحو الفرق بين المتنافر والمتلائم فى الطبقة الوسطى[4] . وبعض الناس أَشد إِحساسًا بذلك وفطنة له من بعض ، كما أَن بعضهم أَشد إِحساساً بتمييز الموزون فى الشعر من المكسور ، واختلاف

---

(١) رواه الجاحظ فى البيان والتبيين ط السندوبى ١/٤٧ ويذكره الباقلانى مستشهداً على المتنافر لما فعل الرمانى (إعجاز القرآن ط خفاجى ٢٨٥) .

(٢) هذا البيت زيادة من البيان والتبيين (١/٨٢ . السندوبى) ويذكره فى المؤتلف .

(٣) هذه الأبيات الثلاثة لأبى حية النميرى الشاعر الأموى المجيد ، من شعراء الحماسة . وترو فى الحماسة (شرح الحماسة للتبريزى ط . محيى الدين ٣/٢٦٩) :

رمتنى وستر الله بينى وبينها ونحن بأكناف الحجاز رميم
فلو أنها لما رمتنى رميتُها ولكن عهدى بالنضال قديم

ويرويها المبرد (/١٩١) الكامل . ط . مصر ١٣٥٥ هـ كما رواها الرمانى .

(٤) فى الأصل (. . . بين المتلائم والمتنافر فى الطبقة الوسطى » والصواب من سر الفصاحة (ص ٩١) .

الناس فى ذلك من جهة الطباع كاختلافهم فى الصور والأخلاق . والسبب فى التلاؤم تعديل الحروف فى التأليف ، فكلما كان أعدل كان أشد تلاؤمًا . وأما التنافر فالسبب فيه ماذكره الخليل من البعد الشديد أو القرب الشديد [1] وذلك أنه إذا بَعُد البعد الشديد كان بمنزلة الطفر ، وإذا قرب القرب الشديد كان بمنزله مشى المقيد ، لأنه بمنزلة رفع اللسان ورده إلى مكانه ، وكلاهما صعب على اللسان ، والسهولة من ذلك فى الاعتدال ، ولذلك وقع فى الكلام الإدغام والإبدال .

والفائدة فى التلاؤم حسن الكلام فى السمع ، وسهولته فى اللفظ ، وتقبل المعنى له فى النفس لما يرد عليها من حسن الصورة وطريق الدلالة . ومَثَلُ ذلك مثلُ قراءة الكتاب فى أحسن ما يكون من الخط والحروف ، وقراءته فى أقبح ما يكون من الحرف والخط ، فذلك متفاوت فى الصورة وإن كانت المعانى واحدة .

ومخارج الحروف مختلفة ، فمنها ما هو من أقصى الحلق ، ومنها ما هو من أدنى الفم ، ومنها ما هو فى الوسائط بين ذلك .

والتلاؤم فى التعديل من غير بعد شديد أو قرب شديد . وذلك يظهر بسهولته على اللسان ، وحسنه فى الأسماع ، وتقبله فى الطباع ، فإذا انضاف إلى ذلك حسن البيان فى صحة البرهان فى أعلى الطبقات ظهر الإعجاز للجيد الطباع البصير بجواهر الكلام ، كما يظهر له أعلى طبقات الشعر من أناها إذا تفاوت ما بينهما . وقد عم التحدى به للجميع لرفع الإشكال ، وجاء على

---

(١) يناقش ابن سنان هذا الرأى (سر الفصاحة ٩٤) وسيجىء نص مناقشته فى الباب الأخير من هذا الكتاب .

جهة الإخبار بأنه لا تقع المعارضة لأجل الإعجاز ، فقال عز وجل : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فى رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا على عَبْدِنَا فأْتُوا بِسُورَةٍ منْ مِثْله وادْعُوا شُهَدَاءَكُم من دُونِ الله إِنْ كُنْتُم صَادقين ﴾[١] . ثم قال : ﴿ فإِنْ لَمْ تفعَلُوا وَلَنْ تفْعَلُوا ﴾ فقطع بأنهم لن يفعلوا . وقال تعالى : ﴿ قُلْ لئن اجْتمعَتِ الإِنسُ والجنُّ على أَنْ يأْتُوا بمثلِ هذا القُرآن لا يأْتُونَ بمثلهِ ﴾[٢] . وقال : ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحديثٍ مِثْلِهِ إِنْ كانُوا صَادقين ﴾[٣] . ولما تعللوا بالعلم والمعانى[٤] التى فيه قال : ﴿ فأْتُوا بعشر سُوَرٍ مِثْلِه مُفْتريات ﴾[٥] . فقد قامت الحجة على العربى : والعجمى بعجز الجميع عن المعارضة إذ بذلك تبين المعجزة .

باب الفواصل

الفواصل حروف متشاكلة فى المقاطع توجب حسن إفهام المعانى . والفواصل بلاغة ، والأسجاع عجيب[٦] ، وذلك أن الفواصل تابعة للمعانى ، وأما الأسجاع فالمعانى تابعة لها . وهو قلب ما توجبه الحكمة فى الدلالة ، إذ كان الغرض الذى هو حكمة إنما هو الإبانة عن المعانى التى الحاجة إليها ماسة ، فإذا كانت المشاكلة وصلة إليه فهو بلاغة ، وإذا كانت المشاكلة على خلاف ذلك فهو عيب ولُكنة ، لأنه تكلف من غير الوجه الذى توجبه الحكمة ، ومَثَلُه مثل من رَصَّع تاجًا ثم أَلْبسه زنجياً ساقطًا ، أو نظم قلادة در ثم أَلْبسها كلبًا . وقبح ذلك وعيبه بَيِّنٌ لمن له أدنى فهم ، فمن ذلك ما يحكى عن بعض الكهان : « والأَرض والسماء ، والغراب الواقعة بنقعاء ، لقد نفر المجد إلى العُشَراء » .

---

(١) [البقرة ٢/٢٣] . (٢) [الإسراء ١٧/٨٨] . (٣) [الطور ٥٢/٣٤] .

(٤) شرح عبد القاهر هذه الفكرة فى رسالة (الشافية) المذكورة بعد ص ١٣٨ و ١٩٩ .

(٥) [هود ١١ / ١٣] . (٦) راجع رقم ٦ فى ملحق التعليقات .

ومنه ما يحكى عن مسيلمة الكذاب : « يا ضفدع نق كم تنقين ، لا الماء تكدرين ولا النهر تفارقين » .

فهذا أغث كلام يكون وأسخفه ، وقد بيَّنا علته ، وهو تكلف المعانى من أجله[1] ، وجعلها تابعة له من غير أن يبالى المتكلم بها ما كانت .

وفواصل القرآن كلها بلاغة وحكمة ، لأنها طريق إلى إفهام المعانى التى يحتاج إليها فى أحسن صورة يدل بها عليها ، وإنما أخذ السجع فى الكلام من سجع الحمامة ، وذلك أنه ليس فيه إلا الأصوات المتشاكلة ، كما ليس فى سجع الحمامة إلا الأصوات المتشاكلة ، إذ كان المعنى لما تُكُلِّفَ من غير وجه الحاجة إليه والفائدة فيه لم يعتد به ، فصار بمنزلة ما ليس فيه إلا الأصوات المتشاكلة .

والفواصل على وجهين : أحدهما على الحروف المتجانسة والاخر على الحروف المتقاربة [2] ، فالحروف المتجانسة كقوله تعالى : ﴿ طه ما أنزلْنا عليك القرآن لتشقى إلاَّ تذكِرَةً لمن يخْشَى ﴾[3] . الآيات . وكقوله : ﴿ والطورِ وكتابٍ مسْطُورٍ ﴾ . . الآيات ، وأما الحروف المتقاربة فكالميم من النون ، كقوله تعالى : ﴿ الرحمن الرحيم مالك يوم الدين ﴾ ، وكالدال مع الباء نحو : ﴿ ق ، والقرآن المجيد ﴾ ثم قال : ﴿ هذا شيءٌ عجيب ﴾ وإنما حسن فى الفواصل الحروف المتقاربة لأنه يكتنف الكلام من البيان ما يدل على المراد فى تمييز الفواصل والمقاطع ، لما فيه من البلاغة وحسن العبارة . وأما القوافى فلا تحتمل ذلك لأنها ليست فى الطبقة العليا من البلاغة وإنما حسَّن الكلام فيها إقامةُ

---

(١) أى من أجل السجع .

(٢) ذكر ابن سنان الوجهين على أنهما تماثل وتقارب أو حروف متماثلة ومتقاربة وناقش رأى الرمانى فيها وسيجىء بعد (سر الفصاحة ١٦٣ ، ١٦٤ وما بعدها) (٣) [طه ٢٠/١] .

الوزن ومجانسة القوافى ، فلو بطل أحد الشيئين[١] خرج عن ذلك المنهاج . وبطل ذلك الحسن الذى له فى الأسماع ، ونقصت رتبته فى الأفهام . والفائدة فى الفواصل دلالتها على المقاطع ، وتحسينها الكلام بالتشاكل وإبداؤها فى الآى بالنظائر .

باب التجانس

تجانس البلاغة هو بيان بأنواع الكلام الذى يجمعه أصل واحد فى اللغة . والتجانس على وجهين ؛ مزاوجة ومناسبة[٢] ، فالمزاوجة تقع فى الجزاء[٣] كقوله تعالى : ﴿ فمن اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فاعْتَدُوا عليهِ ﴾[٤] أى جازُوه بما يستحق على طريق العدل ، إلا أنه استعير للثانى لفظ الاعتداء لتأكيد الدلالة على المساواة فى المقدار ، فجاء على مزاوجة الكلام لحسن البيان . ومن ذلك ﴿ مُسْتَهْزِئُون ، اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ ، أى يجازيهم على استهزائهم ، ومنه : (ومكرُوا ومكَرَ اللهُ واللهُ خيرُ الماكِرين)[٥] أى جازاهم على مكرهم . فاستعير للجزاء على المكر اسم المكر لتحقيق الدلالة على أنَّ وبال المكر راجع عليهم ومختص بهم . ومنه ﴿ يُخَادِعُون اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾[٦] أى مجازيهم على خديعتهم ، ووبال الخديعة راجع عليهم . والعرب تقول : الجزاء بالجزاء ، والأول ليس بجزاء ، وإنما هو على مزاوجة الكلام .

---

(١) هذه اللفظة فى الأصل يمكن أن تقرأ : البيتين .
(٢) راجع رقم ٧ فى ملحق تعليقات المتأخرين .
(٣) ذكر المبرد هذا النوع فى « ما اختلف لفظه » وسماه المزج (ص ١٣ — ١٤) .
(٤) [البقرة ٢ /١٤] .
(٥) [آل عمران ٣/٥٤] .
(٦) [النساء ٤ / ١٤٢] .

قال عمرو بن كلثوم :

أَلا لا يجْهَلَنْ أَحَـدٌ علينَا فنجْهَلَ فوق جهْلِ الجَاهِلِينَا(١)

فهذا حسن فى البلاغة ، ولكنه دون بلاغة القرآن لأَنه لا يؤذن بالعدل كما آذنت بلاغة القرآن ، وإنما فيه الإيذان براجع الوبال فقط ، والاستعارة للثانى أَولى من الاستعارة للأَول لأَن الثانى يحتذى فيه على مثال الأَول فى الاستحقاق ، فالأَول بمنزلة الأَصل والثانى بمنزلة الفرع الذى يحتذى فيه على الأَصل ، فلذلك نقصت منزلة قولهم : الجزاء بالجزاء ، عن الاستعارة بمزاوجة الكلام فى القرآن .

الثانى من المجانس وهو المناسبة ، وهى تدور فى فنون المعانى التى ترجع إلى أَصل واحد . فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ ثم انصرفُوا صرفَ الله قلوبَهمْ ﴾(٢) فجونس بالانصراف عن الذكر صرف القلب عن الخير ، والأَصل فيه واحد وهو الذهاب عن الشىء ، أَما هم فذهبوا عن الذكر ، وأَما قلوبهم فذهب عنها الخير . ومنه : ﴿ يَخافُونَ يوماً تَتَقَلَّبُ فِيه القُلُوب والأَبْصَارُ ﴾(٣) فجونس بالقلوب التقلب ، والأَصل واحد ، فالقلوب تتقلبُ بالخواطر ، والأَبصار تتقلب فى المناظر ، والأَصل التصرف . ومنه . ﴿ يَمْحقُ الله الربا ويُربِى الصَّدَقات ﴾(٤) فجونس بإرباء الصدقة ربا الجاهلية ، والأَصل واحد وهو الزيادة إلا أَنه جعل بدل تلك الزيادة المذمومة زيادة محمودة .

---

(١) قال المبرد : لم يمدح بأنه جاهل ، إنما قصد المكافأة والشرف فى قوله :

فوق جهل الجاهلينا

(ما اتفق لفظه واختلف معناه . السلفية ١٣٥٠ ص ١٤) .

(٢) [التوبة ٩/١٢٧] .

(٣) [النور ٢٤/٣٧] .

(٤) [البقرة ٢ / ٢٧٦] .

باب التصريف

التصريف تصريف المعنى فى[1] المعانى المختلفة ، كتصريفه فى الدلالات المختلفة ، وهو عقدها به على جهة التعاقب ، فتصريف المعنى فى المعانى كتصريف الأَصل فى الاشتقاق فى المعانى المختلفة ، وهو عقدها به على جهة المعاقبة ، كتصريف الملك فى معانى الصفات ؛ فصُرِّف فى معنى مالك ، وملك ، ذى الملكوت ، والمليك ، وفى معنى التمليك ، والتمالك ، والإملاك . والتملك ، والمملوك .

كذلك تصريف معنى العرض فى الأَعراض ، والاعتراض ، والاستعراض ، وبالتعرض ، والتعريض والمعارضة والعرض والعروض . وكله منعقد بمعنى الظهور . ومنه : أَعرضت اليمامة أَى ظهرت وهو الأَصل ، ومنه أَيضًا الإعراض عن الإنسان لأَنه انزواءٌ عن الظهور له ، ومنه الاعتراض وهو ظهور ما يصد عن الذهاب ، ومنه الاستعراض للجارية لأَنه طَلَبٌ لظهورها للحاسة ، ومنه التعريض للأَمر لأَنه طَلَبٌ لظهوره بالفعل ، ومنه التعريض للنفع لأَنه يصير على السبب الذى به يقع ظهور النفع ، ومنه المعارضة لأَنها مقابلة يقع منها ظهور المساواة ، أو المخالفة ، ومنه المعْرِض لأَن ظهور الشىء به أَبين ، ومنه العرض لأَنه على ظهور شىء لا يلبث ، ومنه العَرُوض لأَنه ميزان الشعر ، يظهر به المنكسر من المتزن . وهذا الضرب من التصريف فيه بيان عجيب يظهر فيه المعنى بما يكتنفه من المعانى التى تظهره وتدل عليه . أَما تصريف المعنى فى الدلالات المختلفة فقد جاء فى القرآن فى غير قصة ، منها قصة موسى

---

(١) راجع رقم ٨ فى التعليقات .

عليه السلام ، ذكرت فى سورة الأعراف وفى طه والشعراء . . وغيرها لوجوه من الحكمة ، منها التصرف فى البلاغة من غير نقصان عن أعلى مرتبة ، ومنها تمكين العبرة والموعظة ، ومنها حل الشبهة فى المعجزة ، وذلك أن الأشياء على وجهين : منها مالا يدخل تحت الممكن فيه معارضة ، ومنها ما يدخل تحت الممكن ، فالأول كالتحدى بعدد يضرب فى عدد فيكون منه خمسة وعشرون غير خمسة فى خمسة وكذلك التحدى فى قسمة المقادير أنه لا يخلو مقداران من أن يكون أحدهما أزيد من الآخر أو أنقص أو مساويًا . فإذا قال قائل : هاتوا مثل هذه القسمة فى غير المقادير قلنا لا يلزم ذلك لأنه لايدخل تحت المكن . وكذلك سبيل الجذور ، ولو قال جذر مائة عشرة فهاتوا لها جَذْرًا غير العشرة . وليس كذلك سبيل أعلى الطبقات فى البلاغة لأن الذى قدر على أن يأتى بسورة آل عمران والذى قدر على المائدة هو الذى قدر على الأنعام ، وهو الله عز وجل الذى يقدر أن يأتى بما شاء من مثل القرآن فظهور الحجاج على الكفار بأن أتى فى المعنى الواحد بالدلالات المختلفة فيما هو من البلاغة فى أعلى طبقة .

باب التضمين

تضمين الكلام هو حصول معنى فيه من غير ذكر له باسم أو صفة هى عبارة عنه . والتضمين على وجهين : أحدهما ما كان يدل عليه الكلام دلالة الإخبار ، والآخر ما يدل عليه دلالة القياس .

فالأول كذكرك الشىء بأنه مُحدَث ، فهذا يدل على المحدِث دلالة الإخبار ، والتضمين فى الصفتين جميعًا ، إلا أنه على الوجه الذى بَيَّنَّا .

وكذلك سبيل المكسور ومنكسر ، وساقط ، ومسقط .

والتضمين على وجهين ، تضمين توجبه البنية ، وتضمين يوجبه معنى العبارة من حيث لا يصح إلا به ، ومن حيث جرت العادة بأن يعقد به . فأما الذى توجبه نفس البنية ، فالصفة بمعلوم يوجب أنه لابد من عالم ، وكذلك مكرم . وأما الذى يوجبه معنى العبارة من حيث لا تصح إلا به ، فكالصفة بقاتل يدل على مقتول من حيث لا يصح معه معنى قاتل ، ولا مقتول[1] ، فهو على دلالة التضمين .

وأما التضمين الذى يوجبه معنى العبارة من جهة جريان العادة فكقولهم : « الكُرُّ بِستين[2] » المعنى فيه بستين ديناراً ، فهذا مما حذف وضمن الكلامُ معناه لجريان العادة به . والتضمين كله إيجاز استغنى به عن التفصيل إذ كان مما يدل دلالة الإخبار فى كلام الناس ، فأما التضمين الذى يدل عليه دلالة القياس فهو إيجاز فى كلام الله عز وجل خاصة ، لأنه تعالى لا يذهب عليه من وجوه الدلالة ، فنصْبه لها يوجب أن يكون قد دل عليها من كل وجه يصح أن يدل عليه . وليس كذلك سبيل غيره من المتكلمين بتلك العبارة ، لأنه قد تذهب إليه دلالتها من جهة القياس ولا يخرجه ذلك عن أن يكون قد قصد بها الإبانة عما وضعت له فى اللغة من غير أن يلحقه فساد فى العبارة . وكل آية فلا تخلو من تضمين لم يذكر باسم أو صفة ، فمن ذلك : « بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ » قد تضمن التعليم لاستفتاح الأمور على التبرك به والتعظيم لله بذكره ، وأنه أدب من آداب الدين وشعار للمسلمين ، وأنه إقرار بالعبودية واعتراف بالنعمة التى هى من أجل نعمة ، وأنه ملجأ الخائف :

---

(١) أى والحال أنه لا مقتول .

(٢) الكر بالضم مكيال للعراق وستة أوقار حمار وهو ستون قفيزاً أو أربعون إردباً .

ومعتمد للمستنجع . وقد بيّنّا ذلك بعد انقضاء كل آية فى كتاب « الجامع لعلم القرآن »[١] .

باب المبالغة

المبالغة هى الدلالة على كبر المعنى على جهة التغيير عن أصل اللغة لتلك الإبانة . والمبالغة على وجوه منها المبالغة فى الصفة المعدولة عن الجارية بمعنى[٢] المبالغة ، وذلك على أبنية كثيرة منها : فعلان ، ومنها فعال ، وفعول ، ومفعل ، ومفعال . ففعلان كرحمان عدل عن راحم للمبالغة ، ولا يجوز أن يوصف به إلا الله عز وجل لأنه يدل على معنى لايكون إلا له ، وهو معنى وسعت رحمته كل شىء . ومن ذلك فعال كقوله عز وجل : ﴿ وإنى لغفار لمن تاب ﴾ معدول عن غافر للمبالغة ، وكذلك تَوَّاب ، وعلام . ومنه فعول كغفور وشكور ، وودود ، ومنه فعيل كقدير ، ورحيم ، وعليم . ومنه مِفعل كمدعس ، ومطعن ، ومفعال كمنحار ، ومطعام .

الضرب الثانى المبالغة بالصيغة العامة فى موضع الخاصة ، كقوله تعالى : ﴿ خالف كلِّ شىءٍ ﴾[٣] وكقول القائل : أتانِى النَّاسُ ، ولعله لا يكون أتاه (إلا) خمسة فاستكثرهم ، وبالغ فى العبارة عنهم .

الضرب الثالث : إخراج الكلام مخرج الإخبار عن الأعظم الأكبر للمبالغة كقول القائل : جاءَ الملِكُ[٤] إذا جاءَ جيشٌ عظيم له ، ومنه قوله

---

(١) لعل الإشارة هنا إلى كتابة « الجامع الكبير » فى التفسير .

(٢) يورد الباقلانى تعريف المبالغة على أنها الدلالة على كثرة المعنى [إعجاز القرآن ص ٢٨٨ ط. خفاجى] .

(٣) [الأنعام ٦ / ١٠٢] .

(٤) فى الهامش كلمة «نفسه» تجاه هذا السطر ، وترد العباره فى التيمورية جاء الملك بنفسه . وقد آثرنا العبارة كما وردت فى المتن من غير التأكيد لأنه لا يستقيم مع معنى المجاز فى العبارة .

عز وجل : ﴿ وجاءَ ربك والْمَلَكُ صَفًّا صفًّا ﴾[١] فجعل مجيء دلائل الآيات مجيئاً له على المبالغة فى الكلام . ومنه : ﴿ فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُمْ مِن القَوَاعِدِ ﴾[٢] أى أتاهم بعظيم بأسه فجعل ذلك إتياناً له على المبالغة . منه قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى ربُّه لِلْجَبَل جَعَلَهُ دكًّا ﴾[٣] .

الضرب الرابع : إخراج الممكن إلى الممتنع للمبالغة ، نحو قوله تعالى : ﴿ ولا يدخُلُونَ الجنَّة حتَّى يَلِجَ الجَملُ فى سَمِّ الخِيَاطِ ﴾[٤] .

الضرب الخامس : إخراج الكلام مخرج الشك للمبالغة فى العدل والمظاهرة فى الحجاج ، فمن ذلك : ﴿ وإنَّا أَوْ إيَّاكُمْ لعَلَى هُدًى أَوْ فِى ضَلَالٍ مُبين ﴾[٥] . ومنه : ﴿ قُلْ إنْ كَان لِلرَّحْمٰن وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ العَابدِين ﴾[٦] وعلى هذا النحو خرج مخرج قوله تعالى : ﴿ أَصحَابُ الجَنَّةِ يومئذٍ خيرٌ مستقرًّا ﴾[٧] جاء على التسليم أن لهم مستقرًّا خيراً من جهة السلامة من الآلام ، لأنهم ينكرون إعادة الأرواح إلى الأجسام فقيل على هذا أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا . ومنه : ﴿ وهُوَ الَّذِى يَبدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يعيدُه وهو أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ على التسليم أن أحدهما أهون من الآخر فيما يسبق إلى نفوس العقلاء .

الضرب السادس : حذف الأجوبة للمبالغة كقوله تعالى : ﴿ ولوْ ترَى إذْ وُقِفُوا عَلَى النَّار ﴾[٨] و﴿ ولوْ يَرَى الَّذين ظَلَمُوا إذ يَرَوْن العَذابَ ﴾[٩] ومنه : ﴿ ص ، والقرْآن ذى الذكر ﴾[١٠] كأنه قيل : لجاء الحقُّ أو لعَظُمَ

---

(١) [الفجر ٨٩/٢٢] .
(٢) [النحل ١٦ / ٢٦] .
(٣) [الأعراف ٧٦/١٤٣] .
(٤) [الأعراف ٧ / ٤٠] .
(٥) [سبأ ٣٤/ ٢٤] .
(٦) [الزخرف ٤٣ / ٨١] .
(٧) [الفرقان ٢٥] .
(٨) [الأنعام ٦/٢٧] .
(٩) [البقرة ٢ / ١٦٥] .
(١٠) [ص ٣٨ / ١] .

الأمرُ أو لجاء بالصدقِ . كل ذلك يذهب إليه الوهم لما فيه من التفخيم . والحذف أبلغ من الذكر ، لأن الذكر يقتصر على وجه والحذف يذهب فيه الوهم إلى كل وجه من وجوه التعظيم لما قد تضمنه من التفخيم .

باب البيان

البيان هو الإحضار لما يظهر به تميز الشيء من غيره فى الإدراك .

والبيان على أربعة أقسام[1] : كلام ، وحال ، وإشارة ، وعلامة . والكلام على وجهين : كلامٌ يظهر به تميز الشيء من غيره فهو بيان ، وكلام لا يظهر به تميز الشيء فليس ببيان كالكلام المخلط والمحال الذى لا يفهم به معنى . وليس كل بيان يفهم به المراد فهو حسن من قبل أنه قد يكون على عى وفساد ، كقول السوادى وقد سئل عن أتان معه فقيل له : ما تصنع بها ؟ ، فقال : أُحْبلها وتولد لى . فهذا كلام قبيح فاسد ، وإن قد فهم به المراد وأبان عن معنى الجواب . وكذلك ما يحكى عن باقل ، والعرب تضرب به المثل فى العى فتقول : أعيى من باقل ، وأبين من سحبان وائل ، فبلغ من عيه أنه سُئل عن ظبية كانت معه بكم اشتراها ، فأراد أن يقول بأحد عشر ، فأخرج لسانه وفرج عشر أصابعه فأفلتت الظبية من يده . فهذا وإن كان قد أكد للإفهام ، فهو أبعد الناس من حسن البيان . وليس بحسن أن يطلق اسم بيان على ما قبح من الكلام ، لأن الله قد مدح البيان واعتد به فى أياديه الجسام ، فقال : ﴿ الرَّحْمٰنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ ولكن إذا قيد بما يدل على أنه يعنى به إفهام المراد جاز .

---

(١) سبق الجاحظ الرمانى إلى تعريف البيان وقرر أن جميع أصناف الدلالات على المعانى من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء لاتنقص ولا تزيد : أولها اللفظ ، ثم الإشارة ثم العقد ، ثم الخط ، ثم الحال التى تسمى نصبة ، والنصبة هى الحال الدالة التى تقوم مقام تلك الأصناف ولا تقصر عن مدى تلك الدلالات . (البيان والتبيين ط . هارون جـ١ / ٧٥ — ٧٦) .

وحسن البيان فى الكلام على مراتب : فأعلاها مرتبة ما جمع أسباب الحسن فى العبارة من تعديل النظم حتى يحسن فى السمع ويسهل على اللسان وتتقبله النفس تقبل البرد ، وحتى يأتى على مقدار الحاجة فيما هو حقه من المرتبة .

والبيان فى الكلام لا يخلو من أن يكون باسم أو صفة أو تأليف من غير اسم للمعنى أو صفة ، كقولك : غلام زيد ، فهذا التأليف يدل على الملك من غير ذكر له باسم أو صفة ، ودلالة الاشتقاق كدلالة التأليف فى أنه من غير ذكر اسم أو صفة ، كقولك : قاتل تدل على مقتول وقتل من غير ذكر اسم أو صفة لواحد منها ، ولكن المعنى مضمن بالصفة المشتقة وإن لم تكن له . ودلالة الأسماء والصفات متناهية ، فأما دلالة التأليف فليس لها نهاية ، ولهذا صار التحدى فيها بالمعارضة لتظهر المعجزة ، ولو قال قائل ، قد انتهى تأليف الشعر حتى لا يمكن أحداً أن يأتى بقصيدة إلا وقد قيلت فيما قيل لكان ذلك باطلا ، لأن دلالة التأليف ليس لها نهاية كما أن الممكن من العدد ليس له نهاية يوقف عندها لايمكن أن يزاد عليها . والقرآن كله فى نهاية حسن البيان ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وعُيُونٍ وزُرُوعٍ ومقام كريم ﴾[1] ، فهذا بيان عجيب يوجب التحذير من الاغترار بالإمهال . وقال سبحانه : ﴿ إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين ﴾[2] ، وقال ﴿ إِنَّ المتَّقينَ فى مَقَامٍ أمينٍ ﴾[3] فهذا من أحسن الوعد والوعيد . وقال : ﴿وضرب لَنا مَثَلاً ونَسىَ خَلْقَه قَالَ مَنْ يُحْيى العظَامَ وهىَ رَميمٌ قُلْ يُحْيِيها الَّذى أَنشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وهو بكلِّ خَلْقٍ عليمٌ ﴾[4] فهذا أبلغ ما يكون من

---

(١) [الدخان ٤٤/٢٦] .
(٢) [الدخان ٤٤ / ٤٠] .
(٣) [الدخان ٤٤ / ٥١] .
(٤) [يس ٣٦ / ٧٦٩] .

الحجاج وقال : ﴿ أَفنَضْربُ عنكُمُ الذِّكرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمُ قومًا مُسْرِفين ﴾(١) ، فهذا أَشد ما يكون من التقريع وقال تعالى : ﴿ ولن ينفَعَكُمُ اليومَ إِذْ ظَلَمْتُم أَنَّكُم فى العَذَاب مُشْتَرِكُون ﴾(٢) فهذا أَعظم ما يكون من التحسير . وقال : ﴿ ولو رُدُّوا لعَادُوا لما نُهُوا عنه ﴾(٣) ، وهذا أَدل دليل على العدل من حيث لم يقتطعوا عما يتخلصون به من ضرر الجرم ، ولا كانت قبائحهم على طريق الجبر . . وقال تعالى : ﴿ الأَخلَّاءُ يومئذٍ بعْضُهُم لبعضٍ عَدُوٌّ إِلَّا المتَّقين ﴾(٤) وهذا أَشد ما يكون من التنفير على الخلة إلا على التقوى . وقال تعالى : ﴿ أَن تقولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتَا على ما فَرَّطْتُ فى جنب الله ﴾(٥) فهذا أَشد ما يكون من التحذير من التفريط . وقال تعالى : ﴿ أَفمَنْ يُلْقَى فى النارِ خَيرٌ أَم من يأْتى آمنًا يوْم القيامة ﴾(٦) . وهذا أَشد ما يكون فى التبعيد . وقال عز وجل : ﴿ اعْمَلُوا ما شئْتُم إِنَّه بما تعْمَلُون بَصيرٌ ﴾(٧) وهذا أَعظم ما يكون من الوعيد . وقال عزوجل ﴿ وترى الظالمين لَمَّا رَأَوُا العَذَابَ يقُولونَ هَلْ إِلى مَرَدٍّ منْ سَبِيل ﴾(٨) ، وهذا أَشد ما يكون من التحسير . وقال عز وجل : ﴿ كذَلكَ ما أَتَى الَّذين منْ قَبلهم من رَسُول إِلاَّ قالُوا سَاحرٌ أَوْ مَجْنونٌ أَتواصَوْا بِهِ بل هُم قومٌ طَاغُون ﴾(٩) وهذا أَشد ما يكون فى التقريع من أَجل التماى فى الأَباطيل وقال عز وجل : ﴿ يُعْرَفُ المُجْرِمُون بسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بالنَّواصى والأَقْدام ﴾(١٠) وهذا أَشد ما يكون من الإِذلال . وقال عز وجل ﴿ هذه جهَنَّمُ التى يُكَذِّبُ

---

(١) [الزخرف ٤٣/٥] .
(٢) [الزخرف ٤٣/٣٩] .
(٣) [الأنعام ٦١/٢٨] .
(٤) [الزخرف ٤٣ /٦٣] .
(٥) [الزمر ٣٩ / ٥٦] .
(٦) (فصلت٤١/٤٠] .
(٧) [فصلت ٤١ / ٤٠] .
(٨) (الشورى ٤٢ / ٤٤] .
(٩) [الذاريات ٥١/٥٣] .
(١٠) (الرحمن ٥٥ / ٤١] .

بها المُجْرِمُون ﴾[١] وهذا أشد ما يكون من التقريع . وقال تعالى : ﴿ وما الحياةُ الدُّنْيا إلَّا متاعُ الغُرُور ﴾[٢] وهذا أشد ما يكون من التحذير . وقال عز وجل : ﴿ فيها ما تَشْتَهِيه الأَنْفسُ وتَلَذُّ الأَعْيُنُ وأَنتمُ فيها خالدُون ﴾[٣] وهذا أشد ما يكون من الترغيب . وقال عز وجل : ﴿ ما اتَّخَذَ الله من ولَد وما كَانَ مَعَه من إلٰهٍ إذًا لذهَب كلُّ إلٰه بمَا خَلَقَ ولَعَلاَ بعْضُهُمْ على بعْضٍ ﴾[٤] وقال تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فيهما آلهةٌ إلَّا اللهُ لفسَدَتا ﴾ وهذا أبلغ مايكون من الحجاج . وهو الأَصْل الذى عليه الاعتماد فى صحة التوحيد ، لأَنه لو كان إله آخر لبطل الخلق بالتمانع بوجودهما دون أفعالهما .

باب البيان عن الوجوه التى ذكرنا فى أول الكتاب

وهى : ترك المعارضة مع توفر الدواعى وشدة الحاجة ، والتحدى للكافة . والصرفة ، والبلاغة ، والأَخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة ، ونقض العادة ، وقياسه بكل معجزة .

أما توفر الدواعى فيوجب الفعل مع الإمكان لامحالة ، فى واحد كان أو جماعة . والدليل على ذلك أن إنسانًا لو توفرت دواعيه إلى شرب ماء بحضرته من جهة عطشه واستحسانه لشربه . وكل داع يدعو إلى مثله ، وهو مع ذلك ممكن له فلا يجوز ألا تقع شربه منه حتى يموت عطشاً لتوفر الدواعى على ما بينا ، فإن لم يشربه مع توفر الدواعى له دل ذلك على عجزه عنه . فكذلك توفر الدواعى إلى المعارضة على القرآن لما لَمْ تقع المعارضة دل ذلك على العجز عنها .

---

(١) [الرحمن ٥٥ / ٤٣] .
(٢) [آل عمران ٣ / ١٨٥] .
(٣) [الزخرف ٤٣/٨١] .
(٤) [المؤمنون ٣ / ٩١] .

وأما التحدى للكافة فهو أظهر فى أنهم لايجوز أن يتركوا المعارضة مع توفر الدواعى إلا للعجز عنها .

وأما الصَّرفة فهى صرف الهمم عن المعارضة ، وعلى ذلك كان يعتمد بعض أهل العلم فى أن القرآن معجز من جهة صرف الهمم عن المعارضة ؛ وذلك خارج عن العادة كخروج سائر المعجزات التى دلت على النبوة ، وهذا عندنا أحد وجوه الإعجاز التى يظهر منها للعقول .

وأما الأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة فإنه لما كان لا يجوز أن تقع على الاتفاق دل على أنها من عند علام الغيوب ، فمن ذلك قوله عز وجل : ﴿ وإذ يَعدكم الله إحدى الطَّائفتين أنها لَكُم وتودُّون أنَّ غَيْرَ ذات الشَّوكة تكون لكُم ويريدُ الله أنْ يُحِقَّ الحَقَّ بِكلِمَاتِه ويقطعَ دابِرَ الكافرين ﴾ فكان الأمر كما وعد من الظفر بإحدى الطائفتين : العير التى كان فيها أبو سفيان ، أو الجيش الذين خرجوا يحمونها من قريش ، فأظفرهم الله عز وجل بقريش يوم بدر على ما تقدم به الوعد . ومنه قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ غُلبتِ الرُّومُ فى أَدْنى الأَرْض وهُم من بعْدِ غَلَبهم سَيَغْلبُونَ ﴾(١) . ومنه : ﴿ هو الذى أَرسَلَ رسُولَه بالهُدَى ودين الحَقِّ ليُظْهرَهُ عَلَى الدِّين كُلِّه ولَوْ كَرِهَ المُشْركُون ﴾(٢) ومنه : (فَتَمنَّوا الموْتَ إنْ كُنتُم صَادقينَ ، ولَنْ يَتَمنَّوه أَبدًا بما قدَّمتْ أَيْديهم ﴾(٣) . ومنه : ﴿ فأْتوا بسُورة من مثْله وادعُوا شُهَدَاءَكُمْ منْ دُون الله إنْ كُنتُم صَادقينَ ، فإنْ لَمْ تَفْعَلوا ولن تفعَلوا ﴾(٤) ، ومنه : ﴿ سَيُهْزَمُ الجَمْعُ ويُوَلُّونَ الدبُر ﴾(٥) ، ومنه : ﴿ لقَد صدق اللهُ رسُولَه الرُّؤيا بالحَقِّ لتَدْخُلُنَّ

---

(١) [الروم ٣٠/١] .
(٢) [الصف ٦١ / ٩] .
(٣) [البقرة ٢/٩٤] .
(٤) [البقرة ٢ / ٢٣] .
(٥) [القمر ٥٤ / ٤٥] .

المسْجِدَ الحَرام إنْ شَاءَ الله آمنين مُحلّقين رؤوسكُم ومُقَصِّرين لا تَخَافُون ﴾[١] ومنه : ﴿ وعَدكُم اللهُ مغَانمَ كثيرةً تأْخُذُونها فعجَّل لكم هذِه وكفَّ أَيْدِى الناسِ عنكُم ﴾[٢] ثم قال : ﴿ وأُخرى لَمْ تقْدِرُوا عَليها قَدْ أَحاط الله بهَا ﴾[٣].

وأَما نقض العادة فإن العادة كانت جارية بضروب من أَنواع الكلام معروفة : منها الشعر ومنها السجع ومنها الخطب ومنها الرسائل ، ومنها المنثور الذى يدور بين الناس فى الحديث ، فأَتى القرآن بطريقة مفردة خارجة عن العادة لها منزلة فى الحسن تفوق به كل طريقة . ولولا أَن الوزن يحسن الشعر لنقصت منزلته فى الحسن نقصانًا عظيما. ولو عمل عامل من الكتان باليد من غير آلة ولا حَفٍّ[٤] ما يفوقَ الدبِيقِىَّ[٥] فى اللين والحسن حتى لا يشك من رآه أَنه أَرفع الثياب الدَّبِيقِيَّةِ التى بلغت فى الحسن النهاية لكان معجزًا . ولذلك من جاءَ بغير الوزن المعروف فى الطباع ، الذى من شأْنه أَن يحسِّن الكلام بما يفوق الموزون فهو معجز .

وأَما قياسُه بكل معجزة فإنه يظهر إعجازه من هذه الجهة ، إذ كانَ سبيلُ فلقِ البحر وقلبِ العصا حيةً وما جرى هذا المجرى فى ذلك سبيلاً واحدًا فى الإعجاز ، إذا خرج عن العادة وقعد الخلق فيه عن المعارضة . فإن قال قائل : فلعل السُّور القِصَار ممكن للناس ، قيل له : لا يجوز ذلك ؛ من قبل أَن التحدى قد وقع بها فظهر العجز عنها فى قوله تعالى : ﴿ قل فأْتوا بسورة من مثله ﴾ فلم يخص بذلك الطوال دون القصار ، فإن قال قائل فإنه يمكن فى القصار أَن تغير الفواصل فيجعل بدل كل كلمة ما يقوم مقامها ، فهل

---

(١) [الفتح ٤٨/ ٢٧] .
(٢) [الفتح ٤٨ /٢٠] .
(٣) [الفتح ٤٨ / ٢١] .
(٤) الحف : المنسج .
(٥) نوع من الثياب الرقيقة ينسب إلى بليدة مصرية اسمها دبيق كانت بين الفرما وتنيس .

يكون ذلك معارضة ؟ ! قيل له : لا ، من قبل أن المُفْحَم [١] يمكنه فى قوافى الشعر مثل ذلك ، وإن كان لا يمكنه أن ينشئ بيتًا واحدًا ، ولا يفصل بطبعه بين مكسور وموزون ، فلو أن مفحمًا رام أن يجعل بدل قوافى قصيدة رؤبة [٢]

وقاتِم الأَعمـــاق خاوى المخترَقْ
مشتَبِه الأَعْلام لمَّـــاعِ الخَفَقْ
يَكِلُّ وفْدُ الرِّيح من حيثُ انخَرَقْ

فجعل بدل المخترق المُمتَزق ، وبدل الخَفَق الشَّفَق ، وبدل انخرق انطلق لأَمكنه ذلك ولم يجب به قول الشعر ولا معارضة رؤبة فى هذه القصيدة عند أَحد له أَدنى معرفة . فكذلك سبيل من غَيَّر الفواصل وزعم أنه قد عارض . وهذا واضح بَيِّن لا يخفى على متأَمل والحمد لله .

فإن قال : فما ينكر أَن يكونوا عدلوا عن معارضة الطوال للعجز وعدلوا عن معارضة القصار لخفاءِ المساواة فى الحكم ! . قيل له : لا يجوز ذلك ، لأَن الحجة لهم به قائمة لو كان الأَمر على تلك الصفة ، إذ كانت المعارضة فيما جرت به العادة على ذلك وقعت من عصبة قوم لأَحد الفريقين ، وعصبة فريق للآخر على نحو نقائض جرير والفرزدق ؟ وقبلهما عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة ، فلو كان مما يجوز أَن يقع فيه الاختلاف بين الجيدى الطباع لخفاءِ الأَمر فيه لم يتركوا المعارضة له والاحتجاج به .

---

(١) المفحم ككرم العيى ومن لا يقدر يقول شعراً .

(٢) هذه الأبيات من قصيدة مرجزة مشهورة لرؤبة بن العجاج وهى ترد فى كتب النحو شاهداً على أن تنوين الترنم الذى قد يلحق الروى المقيد ويسميه بعضهم الغالى . [راجع خزانة الأدب ص ٨١—٩٤ ط القاهرة ١٣٤٧هـ] .

فإن قال قائل : فلم اعتمدتم على الاحتجاج بعجز العرب دون الموالدين ، وهو عندكم معجز للجميع ، مع أنه يوجد للمولدين من الكلام البليغ شيء كثير ؟ قيل : لأن العرب كانت تقيم الأوزان والإعراب بالطباع ، وليس فى المولدين من يقيم الإعراب بالطباع كما يقيم الأوزان والعرب على البلاغة أقدر لما بيّنا من فطنتهم لما لا يفطن له المولّدُون من إقامة الإعراب بالطباع ، فإذا عجزوا عن ذلك فالمولدون عنه أعجز* .

* فى الأصل بعد هذا : تم والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم على يد العبد الفقير محمد عبد العزيز عبد القادر بن عبد الخالق الأنصارى سنة ٦٤٢ .